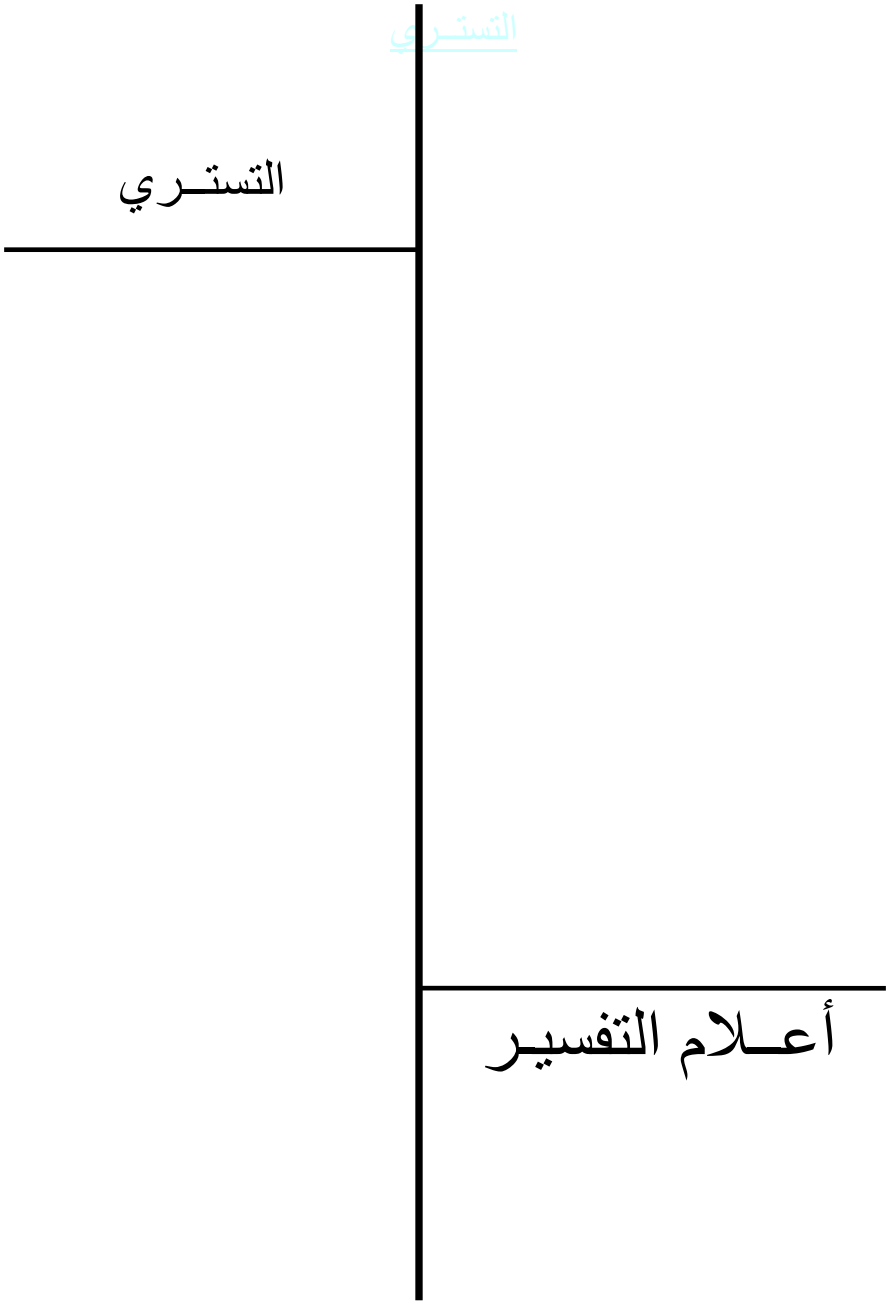
التستـري
التستـري
أعـلام التفسيـر

التستـري
وكتابه: " تفسير القرآن "

هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التّستري [1].

ولد بمدينة تستر في سنة مائتين، وقيل: إحدى ومائتين. وإلى هذه المدينة ترجع نسبته (التستري) [2].

أما أسرته فلم تفدنا المصادر بشيء عنها، سوى ما ذكره ابن بطوطة الذي قال إنه رأى حفدة للتستري في تستر أما وفاته فكانت بالبصرة سنة (283 ه-) وقيل سنة (273 ه-)، وقيل (293 ه-).

(1) انظر ترجمته وأخباره في المصادر الآتية:الأعلام 3/ 143، والأنساب للسمعاني 1/ 465، والبداية والنهاية 1/ 182 (حوادث سنة 283 ه -)، وتاريخ الأدب لبروكلمان 4/ 13، وتاريخ التراث العربي 1: 4/ 29 - 30، والتصوف في الإسلام 66 - 67، وحركة التصوف الإسلامي 109 - 120، وحلية الأولياء 10/ 190 - 212، وحياة الحيوان 1/ 545 - 547 (مادة السبع)، والرسالة القشيرية 15، وسير أعلام النبلاء 13/ 330 - 333، وشذرات الذهب 1/ 182 - 183، وصفوة الصفوة 4/ 64 - 66، وطبقات الصوفية 1/ 166 - 171، وطبقات الشعراني 1/ 13، والعبر 2/ 76 (حوادث سنة 283 ه -)، والعصر العباسي الثاني 163، والكامل في التاريخ 6/ 389 (حوادث سنة 283 ه -)، واللباب في معرفة الأنساب 1/ 216، واللمع للسراج 394، ومرآة الجنان 2/ 249، والمعارضة والرد 1 - 75، ومعجم المفسرين 1/ 218، ومعجم المؤلفين 4/ 284، ومن التراث الصوفي 1 - 125، والمنتظم 5/ 263، والنجوم الزاهرة 3/ 95، ونفحات الأنس لجامي 73، والوافي بالوفيات 16/ 17، ووفيات الأعيان 2/ 429 - 430، انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص 3.

(2) وهذه المدينة من أعظم مدن خوزستان، (و تفرد بعض الناس بجعل تستر مع الأهواز، وبعضهم يجعلها مع البصرة، وجعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منها)، انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص 3.

نشأته وتصوفه:

نشأ سهل التستري في تستر، وكانت بدايات اتجاهه إلى التصوف في سن مبكرة جدا، واحتفظ لنا اليافعي بنص مروي عن سهل التستري تحدث فيه عن نشأته واتخاذه التصوف منهجا وسبيلا لحياته، فقال: (كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمدابن سوّار، وكان يقوم بالليل، وكان يقول: يا سهل، اذهب ونم، فقد شغلت قلبي. وقال لي يوما خالي: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إليَّ، الله شاهدي. فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال: قلها في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوة. فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سري. ثم قال لي خالي يوما: يا سهل، من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده لا يعصيه، إياك والمعصية.

حفظت القرآن وأنا ابن ست أو سبع، وكنت أصوم الدهر، وقوتي خبز الشعير اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فسألت أن يبعثوا بي إلى البصرة أسأل عنها، فجئت البصرة، وسألت علماءها، فلم يشفني ما سمعت. فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العبادي، فسألته عنها فأجابني. وأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بأدبه. ثم رجعت إلى تستر، فجعلت قوتي اقتصارا على أن يشترى لي بدرهم فرقان الشعير، فيطحن ويختبز، فأفطر عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة بغير ملح ولا إدام، وكان يكفيني ذلك الدرهم سنة. ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال، ثم جعلتها خمسا، ثم سبعا، حتى بلغت خمسا وعشرين ليلة، وكنت على ذلك عشرين سنة. ثم خرجت أسيح في

الأرض سنين، ثم عدت إلى تستر، وكنت أقوم الليل كله).

يتضح من هذا النص أن بدايات التستري الصوفية كانت على يد خاله الذي لا تفيدنا المصادر بشيء عنه، سوى أنه لقّن التستري مبادئ التصوف، ثم تلقى التصوف على يد شيخه حمزة العبادي في عبادان.

وتفيد مصادر أخرى أنه صحب ذا النون المصري الذي كان له دور - لا نعلم مداه - في رعاية بذرة التصوف لديه، فقد ذكرت بعض المصادر أن التستري لقيه في الحج وصحبه.

وثمت متصوف آخر هو إدريس بن أبي خولة الأنطاكي، أفادت المصادر أن التستري حكى عنه، ولم تضف إلى ذلك شيئا آخر.

ولا ندري كم من الزمن أقام في تستر، فإنه هجرها ورحل إلى البصرة وأقام فيها حتى وفاته.

وعن سبب انتقاله إلى البصرة قال ابن الجوزي: (حكى رجل عن سهل أنه يقول: إن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه، و أنه يتكلم إليهم، فأنكر ذلك عليه العوام، حتى نسبوه إلى القبائح، فخرج إلى البصرة، فمات بها).

ويبدو أن ابن الجوزي كان يتحامل على التستري، فقد أنكر عليه تفسير قوله تعالى: {وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ} [النساء: ٣٦]، فقد فسرها التستري على أنها القلب والنفس والجوارح، (و ابن الجوزي اكتفى بإنكار هذا التفسير، دون أن يذكر مبررا لإنكاره) [1].

تلاميذه وأصحابه:

(رواة أخباره)

(1) انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص 4 - 5.

1 - ابن درستويه.

2 - أبو جعفر المصيصي المغازلي.

3 - أبو الحسن البشري.

4 - أبو الحسن البغدادي المزين.

5 - أبو الحسن النخاس.

6 - أبو علي البصري.

7 - أبو محمد الجريري. كان من كبار أصحاب الجنيد، وصحب أيضا سهل بن عبد الله التستري، وهو من علماء مشايخ القوم.

أقعد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله وصحة علمه. توفي سنة ثلاثمائة وإحدى عشرة).

8 - أبو يعقوب السوسي (و من أصدقاء سهل أيضا أبو يعقوب السوسي الصوفي والأستاذ العظيم الذي أشرف على أبي يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري المتوفى سنة 333/ 944. ومن هنا نشأت علاقة الود بين النهرجوري والتستري الذي كان يقدره حق التقدير). وثمت خبر ورد في تفسير التستري يفيد أنهما كانا معا بأرجان.

9 - أحمد بن سالم، وكان له أحوال ومجاهدات، وعنه أخذ الأستاذ أبو طالب صاحب القوت، وهو آخر أصحاب سهل التستري وفاة).

10 - أيوب الحمال (من ذوي الكرامات، صحب سهل بن عبد الله التستري).

11 - البربهاري (شيخ الحنابلة، القدوة، الإمام، أبو محمد الحسن ابن علي بن خلف البربهاري الفقيه. كان قوالا بالحق، لا يخاف في الله لومة لائم. صحب سهل بن عبد الله التستري، وصنف التصانيف. توفي سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين وعمره سبع وسبعون سنة).

12 - بكر بن محمد بن العلاء أبو الفضل القشيري (حكى عن سهل،

وصنف التصانيف، وسكن مصر. توفي بمصر سنة ثلاثمائة وأربع وأربعين، وجاوز الثمانين سنة).

13 - الحلاج: الحسين بن منصور الحلاج أبو مغيث، توفي سنة 309 ه ـ. (نشأ بتستر، وصحب سهل التستري، وصحب ببغداد الجنيد).

14 - عبد الجبار بن شيراز بن يزيد العبدي النهربطي (روى عن سهل التستري) وروى عن التستري عدة أقوال وردت في الحلية أثناء ترجمة.

15 - علي بن عبد العزيز الضرير الصوفي البغدادي أبو الحسن (من قدماء مشايخهم، صحب سهل بن عبد الله التستري).

16 - عمر بن واصل العنبري، ورد اسمه في تفسير التستري حوالي عشر مرات.

17 - محمد بن الحسن بن أحمد الجوري (سمع سهل التستري قراءة).

18 - محمد بن الحسن: (صاحب سهل بن عبد الله).

19 - محمد بن أحمد بن سالم أبو عبد الله (صاحب التستري وراوي كلامه. لا ينتمي إلى غيره من المشايخ، وهو من أهل الاجتهاد، وطريقته طريقة أستاذه سهل التستري، وله بالبصرة أصحاب ينتمون إليه، وإلى ابنه أبي الحسن).

20 - المزين: أبو الحسن البغدادي علي بن محمد المزين، توفي سنة 328 ه ـ، (الأستاذ، العارف، من أورع القوم وأكملهم حالا. صحب التستري والجنيد، وجاور بمكة) [1].

مؤلفاته:

(1) انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص 6 - 7.

يرى بعض الدارسين أن التستري لم يقم بكتابة مؤلفاته بنفسه، ولعل مرد ذلك (حرصه على أن لا يضع بين أيدي خصومه وثائق خطية تحمل فكره، وتكون سببا في عواقب قد تسوء). وقال كمال جعفر: (إن المؤرخين قد نسبوا إليه عددا من المؤلفات التي تختلف كما وكيفا. وأغلب الظن أن هذه الكتب والرسائل إنما هي خلاصة انتقاها ونقلها تلامذته من بعده، وبخاصة ابن سالم).

وقام العلامة فؤاد سزكين بإحصاء مؤلفات التستري المخطوطة، مع بيان مكان وجودها، وانتهى إلى ذكر ثمانية كتب كما قام كمال جعفر بإحصاء مماثل، انتهى فيه إلى ذكر اثني عشر كتابا، منها ستة كتب ذكرها سزكين، وثلاثة ذكرها النديم في الفهرست وكتاب ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون. وانفرد سزكين بذكر كتابين للتستري، لم يذكرهما جعفر، وبذلك يكون مجموع عدد مؤلفات التستري هو أربع عشرة كتابا، وهي حسب ترتيبها الهجائي:

1 - تفسير القرآن العظيم.

2 - جوابات أهل اليقين.

3 - دقائق المحبين.

4 - رسالة في الحروف.

5 - رسالة في الحكم والتصوف.

6 - سلسبيل سهلية.

7 - الغاية لأهل النهاية.

8 - لطائف القصص في قصص الأنبياء.

9 - كتاب المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى في الأحوال.

وإذا كان عنوانه يوحي بأنه كتاب كلامي مخصص للجدل حول

المسائل الكلامية الخالصة، فإن الواقع غير ذلك، فهو كتاب يضم كثيرا من أوجه النقد الموجهة ضد بعض آراء الفرق الكلامية وبخاصة القدرية والمرجئة، ونقض بعض الاتجاهات أو العادات أو الفرق الصوفية.

10 - كتاب الميثاق: ومن المهم أن نلاحظ أن هذا الناسخ يتخذ العنوان الذي وجده لسهل نموذجا ومثالا لعنوان رسالة مماثلة للجنيد في نفس الموضوع. ويضاف إلى ذلك أن الناسخ يؤكد أنه وجد وقرأ رسالة في " الميثاق " لسهل بن عبد الله التستري وهذا المؤلف - وإن كان قد فقد - يمكن التقاط بعض نقاطه الهامة المتصلة بموضوعه فيما عثر عليه من أقوال سهل، وبخاصة في التفسير وفي كلامه المجموع، فيما يتصل بتعليق ه على الآية الكريمة الخاصة بالميثاق في سورة الأعراف رقم 171).

11 - كلام سهل.

12 - مقالة في المنهيات.

13 - مناقب أهل الحق ومناقب أهل الله عزّ وجلّ.

14 - مواعظ العارفين.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير مطبوع في مجلد صغير الحجم، ولم يتعرَّض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية، بل تكلم عن آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة . ويظهر لنا أن سهلاً - رضى الله عنه - لم يؤلف هذا الكتاب، وإنما هى أقوال قالها سهل في آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أمج البلدى، المذكور في أول الكتاب، والذي يقول كثيراً : قال أبو بكر : سئل سهل عن معنى كذا . فقال كذا، ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه.

نقرأ في هذا الكتاب، فنجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معنى

ظاهر القرآن وباطنه، ومعنى الحد والمطلع، فيقول: " ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع . فالظاهر: التلاوة، والباطن : الفهم، والحد : حلالها وحرامها. والمطلع: إشراق القلب على المراد بها. فقهاً من الله عَزَّ وجَلَّ. فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص.. قال تعالى: {فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨]: أي لا يفقهون خطاباً ".

ويقول في موضع آخر: قال سهل: إن الله تعالى ما استولى ولياً من أُمة محمد ﷺ إلا علَّمه القرآن، إما ظاهراً وإما باطناً. قيل له: إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو؟ قال: فهمه، وإن فهمه هو المراد ".

فمن هاتين العبارتين، نأخذ أن سهلاً التسترى يرى: أن الظاهر هو المعنى اللُّغوى المجرَّد، وأن الباطن هو المعنى الذي يُفهم من اللَّفظ ويريده الله تعالى من كلامه.. كما نأخذ منه: أنه يرى أن المعاني الظاهرة أمر عام يقف عليها كل مَن يعرف اللِّسان العربى، أما المعاني الباطنة، فأمر خاص يعرفه أهل الله بتعليم الله إياهم وإرشادهم إليه.

كذلك نجد سهلاً - رضى الله عنه - لم يقتصر في تفسيره على المعاني الإشارية وحدها، بل نجده يذكر أحياناً المعاني الظاهرة، ثم يعقبها بالمعانى الإشارية، وقد يقتصر أحياناً على المعنى الإشارى وحده، كما يقتصر أحياناً على المعنى الظاهرى، بدون أن يعرج على باطن الآية.

وحين يعرض سهل للمعانى الإشارية لا يكون واضحاً في كل ما يقوله، بل تارة بالمعانى الغريبة التي نستبعد أن تكون مرادة لله تعالى، وذلك كالمعانى التي نقلناها عنه سابقاً في معنى البسملة، و " آلم " فاتحة البقرة، وتارة يأتى بالمعانى الغريبة التي يمكن أن تكون من مدلول اللَّفظ أو مما يشير إليه اللَّفظ، وذلك هو الغالب في تفسيره.

كذلك نجد المؤلف ينحو في كتابه هذا منحى تزكية النفوس، وتطهير القلوب، والتحلى بالأخلاق والفضائل التي يدل عليها القرآن ولو بطريق الإشارة .. وكثيراً ما يسوق من حكايات الصالحين وأخبارهم ما يكون شاهداً لما يذكره، كما أنه يتعرض في بعض الأحيان لدفع إشكالات قد ترد على ظاهر اللَّفظ الكريم، وإليك نماذج من تفسيره.

في سورة الأعراف عند تفسيره لقوله تعالى :{ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ } [الأعراف: ١٤٨]، يقول ما نصه : " عجل كل إنسان مَا أقبل عَلَيه فأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عَبَدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس ".

وفي سورة الشعراء عند تفسيره لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام :{ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾} [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].. يقول ما نصه :{ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾} [الشعراء: ٧٨]، أى الذي خلقنى لعبوديته يهدينى إلى قُرْبه، { وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾} [الشعراء: ٧٩]، قال : يطعمنى لذة الإيمان ويسقينى شراب التوكل والكفاية، {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء: ٨٠]، قال: يعنى إذا تحركت بغيره لغيره عصمنى، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منَعها علىّ،{ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء: ٨١]، قال: الذي يميتنى ثم يحيينى بالذكر، { وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾} [الشعراء: ٨٢]، قال: أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء، ولم يحكم عليه بالمغفرة ".

وفي سورة الصافات عند قوله تعالى :{ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾} [الصافات: ١٠٧]، قال ما نصه: " إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب

ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب، فلما خلص السر له، ورجع عن عادة الطبع، فداه بذبح عظيم ".

فهذه المعاني كلها مقبوله ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللَّفظ القرآنى بدون معارضة شرعية أو عقلية.. والكتاب - في الغالب - يسير على هذه الطريقة، وهى لا شوب فيها [1].

* * *

(1) انظر مقدمة تحقيق تفسير التستري، ص 8، الدكتور محمد حسين الذهبى ، التفسير والمفسرون، 4 / 329.